ماذا وراء معمودية المسيح؟

للمطران جورج خضر

بعد ان تغرب المسيحيون في حياتهم الدنيوية (موائد السهر في عيد الميلاد وبروز الأطفال فيه والشيخ الأبيض اللحية التي يأتي من الغيب) حجب عيد الميلاد عيدا كان اعظم منه تاريخيا وهو عيد الظهور الإلهي المعروف عند العامة بالغطاس الذي تلي ذكراه الفصح في الأهمية. وقد جعلته الدولة عطلة في دوائرها ما قد يدفع الغائبين عنه ان يقيموه. صورته انه تعييد لعماد المسيح في نهر الأردن. وفي المسيحية الأعياد الكبرى ليست تذكرا لحدث ولكنها فكرية اي تأكيد لمعتقد على رجاء اقتباسنا تجديدا للنفس من وراء تذكر الحدث. اجل كل عيد يخترق الزمان الرتيب ليسقط عليه ضوءا من فوق او لنرمي انفسنا في الضوء.

فهمنا لاعتماد السيد في نهر الأردن يندرج في ان المسيح يتماهى مع الناس الذين لبوا دعوة يوحنا المعمدان الى ما سماه الإنجيليون معمودية التوبة. كانت دعوة نبوية مدوية الى الله. يقبل المعلم ان يبدو واحدا من التائبين مع انه لا يحتاج لطهارته الى ذلك. ولكن كل هذا يندرج في خط تواضعه. ويوحنا يعرف ذلك ويستغربه. ان يسلك سلوك التواضع هو ان يسلك سلوك الموت. وفي السياق المسيحي لهذه الصبغة (وهذه هي التسمية العربية للفظة العماد السريانية) او في البرنامج الإنجيلي تجيء الصبغة صورة رمزية عن الموت (الاستغراق في الماء) والقيامة (الخروج من الماء). فانت تقرأ الحادث على ضوء ما جاء فيما بعد.

ما يؤكد قراءتنا ان الموضع المفصلي في الحادث قول الله: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت" على ما جاء عند متى وكذا عند مرقس ولوقا ما يدل على تقليد مشترك أصيل بين الثلاثة لتأكيد بنوة المسيح لله في هذه المناسبة كما في مناسبة التجلي على الجبل. في رجوعنا الى حادثة التجلي نرى ان معناها الحقيقي في لوقا ان مجد المسيح الظاهر على وجهه وثيابه لا يأخذ معناه الحقيقي الا في آلامه. على هذا دار الحديث بين السيد والنبيين اللذين ظهرا له.

"ابني الحبيب الذي به سررت" مرتبطة بلا شك بما جاء عند اشعياء: "هوذا عبدي الذي اعضده مختاري الذي سرت به نفسي" (٤٢: ١). وهذا بدء لنشيد من اناشيد "عبد الله" المتألم. والمسيح عبد في البشرية وليس في هذا من عجب. وكلمة مختار يستعملها عن المسيح بطرس في رسالته الاولى وتنطبق اساسا على ناسوت السيد. كذلك ما قرأه المخلص في مجمع الناصرة من اشعياء: "روح الرب علي لأنه مسحني لأبشر المساكين ارسلني لأشفي المنكسري القلوب لأنادي للمأسورين بالإطلاق وللعمي بالبصر وارسل المنسحقين في الحرية..." (لوقا ٤: ١٦-١٩، اشعيا ٦١: ١و٢). "الذي به سررت" اذا قرئت على خلفية كل ذلك تكشف لنا ان ما اراد ان يبينه الآب على نهر الأردن هو مسيحانية المسيح وفي السياق الإنجيلي المتكامل ان الفكرة كلها من الكلام على معمودية السيد هي إعلان ان هذا المنتصب في مياه النهر انما هو الصائر الى الموت. نحن اذًا مع تعبير فصحي.

***

هذا المعنى الفصحي لمعمودية الرب شهادة يوحنا الإنجيلي عنه: "هوذا حَمَل الله الذي يرفع خطيئة العالم" (١: ٢٩). في نهاية الشهادة يقول يوحنا: "ان هذا هو ابن الله" (١: ٣٤). عندنا هنا تقاطع شهادتين: الاولى ان يسوع حمل الله اي الذبيح والشهادة الثانية انه ابن الله وهي ترادف شهادة اولى ليوحنا الإنجيلي: "الله لم يره احد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر". وتاليا عبارة "ابن الله" هنا تعني البنوة الإلهية الكائنة قبل الأزل ما يجعل لفظة الابن ولفظة الكلمة التي استعملها يوحنا للمرة الاولى متقاربتان جدا ما لا ينفي ان عبارة "ابن الله" لا تدل حصرا على البنوة الإلهية بسبب من تلاحم اللاهوت والناسوت في المسيح وهذا ما نسميه في المصطلح العقائدي تبادل الخواص في المسيح.

ماذا عن الروح القدس بتعريف الروح وتعريف القدس؟ يسميه يوحنا البشير الروح بال التعريف المطلقة ثم ينعته بالقدس بمعنى القدوس وهو اذًا عندنا يختلف عن الكلمة. في المسيحية ليس المسيح روح الله ولكن كلمة الله. هو وجه والكلمة وجه. والروح عندنا مستقر في الكلمة منذ البدء اذ يتحرك كل اقنوم الى الآخر في وحدانية الحب. وما كان بينهما او فيهما قبل الأزل نراه الآن ظاهرا على مياه الأردن. معمودية المسيح كانت مناسبة لإظهار العلاقة السرمدية. ولهذا ترى الكنيسة هذا العيد كشفا لسر الثالوث. ولكنه ما كان كذلك الا بعد ان كان حديثا باطنيا عن سر الألم والانبعاث. الكلام في الناسوت يكشف الكلام في اللاهوت.

السؤال الآن هو ماذا وراء رمزية النزول الى الماء والصعود منه؟ قلنا هو الفصح. غير ان الإنجيل الرابع يقول: "وشهد يوحنا قائلا اني قد رأيت الروح نازلا مثل حمامة في السماء فاستقر عليه" وبعد قليل يقول "هذا هو الذي يعمد بالروح القدس". لماذا "مثل حمامة"؟ ذلك لأن الإنجيل الرابع مطلعه "في البدء كان الكلمة" اي مطلعه هو تماما مطلع سفر التكوين: "في البدء خلق الله السموات والأرض" ليوحي الكاتب الجديد اننا بتنا الآن مع تكوين جديد للإنسانية بالمسيح يسوع. وسفر التكوين ينهي آيته الثانية بقوله: "وروح الله يرف على وجه المياه". ما اراده يوحنا في كلامه على الروح الذي استقر على المسيح في نهر الأردن ان كلام سفر التكوين: "وروح الله يرف على وجه المياه" انما يصل الى تحقيقه النهاية في معمودية المسيح فيصبح هذا في جسده كما في كيانه الأزلي مستقر الروح ويصير الكون به لا بالخلق الاول مستقر الروح. فالروح الإلهي يغذي بقواه الأزلية الانسان كما يضبط مادة الكون. ولهذا يسمى المسيح عندنا الضابط الكل ويصوره الفن الكنسي مباركا الدنيا بيمناه وحاملا الإنجيل بيسراه لأنه يحضن العالم بفعله المباشر وحنو إنجيله.

***

ماذا عن معمودية المسيحي في كل هذا؟ الآية الافصح من متى قول السيد: "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس". هو الاسم الواحد والقوة الواحدة. معمودية لأننا ننزل في الماء. والماء طقس معروف في الحضارات ومارسه يهود ولكنه كان عندهم بما فيهم يوحنا المعمدان ورهبان قمران مجرد رمز لا حقيقة فيه. عندنا ان الروح الإلهي ينزل على المؤمن الطالب المعمودية ويمسحه اي يصبح هو بدوره مستقر الله وعرشه وسماءه. نضح الماء وسيلة تعبيرية اما العمق فهو ما عبر عنه بولس الرسول في رسالته الى اهل رومية: "ام تجهلون اننا كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا بموته؟". واللام هنا تترجم حرفا يدل على الحركة بمعنى اننا نصطبغ لنسير الى المسيح والى موته. ويوضح الرسول الفكرة بقوله: "فدُفنا معه بالمعمودية للموت (اي في حركتنا الى إماتة الخطيئة) حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن ايضا في جدة الحياة لأنه ان كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير ايضا بقيامته".

هذه الآيات أقرب الى الفهم اذا ذكرنا ان بولس يخاطب بالغين عاهدوا الله على ان يتركوا الخطيئة ويحيوا حياة جديدة شبيهة بحياة المسيح. ولكن المبدأ يبقى انك ولو عُمدتَ طفلا تنمو في الإيمان على رجاء ان تميت فيك الإنسان العتيق ليحيا انسانك الجديد. فاللافت ان يسوع من بعد صبغته وصومه في البرية اخذ يقول: "توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات" (متى ٤: ١٧). فالتوبة في هذا السياق هي تعهد المعمودية وجديتها طوال العمر لأن العمر كله نزول في الروح القدس او تقبل دائم له حتى لا يبقى فيك أثر للخطيئة فتزول الأنا الطانشة المنغلقة الحاقدة لتحل فيك أنا المسيح فلا تسير اليه فقط ولكنك تسير فيه. عبارة "في المسيح" تتكرر كثيرا في رسائل بولس. كذلك العبارة التي تقابلها "المسيح في". فالهيكلية الكنسية (القرابين المقدسة ونظام الأسرار والعبادات) كلها مرتبة فقط ليحيا المسيح فيك وتبقى هكذا مصطبغا الى الأبد بموته وقيامته.

اما ان تخطئ من جديد عمدا فتتلوث فهذا موتك الروحي ولكنه ليس موتا الى الابد لأن الرب قادر ان يجددك بمحبته ويؤهلك لتدركها وتسمع بدورك صوته: "انت ابني الحبيب الذي به سررت". ان تعرف ان الله هو الوجه الوحيد الذي اليه تلتفت لتراه وحده يضرب الأصنام الذي شئت ان تعبدها في نفسك. فلا تنتهي القضية بأن تترك الكذب والسرقة والتعدي وما اليه. القضية تنتهي فقط ان انسلخت عن أناك وإغوائها ليسحرك وجه الله وحده. عند ذاك فقط تكون قد قرات معمودية المسيح وجوديا.